شتاءُ القلوب الدافئة
شـــتاء
القلوب
الدافئة
قصص قصيرة لليافعين
عماد كوسا
المحتوى
سنجمعُ الرّحيق
الثعلبُ الذي تميَّز
البلبلُ الحيران
تحت ظلال البلشون
شتاءُ القلوبِ الدافئة
السباقُ الذي غيّر وجه العيد
ISBN 978-91-89288-24-9
دار نشر رقمنة الكتاب العربي-
Stockholm

شتاءُ القلوب الدافئة

قصص قصيرة لليافعين

عماد كوسا

الطبعة الأولى 2021

ISBN: 978-91-89288-24-9

تصميم الغلاف: أحمد شربجي

الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية: 2021-01-30-21-16

الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم

السويد، فاستراء جوتالند

هاتف: 0046790185518

البريد الإلكتروني:

digitizethearabicbook.com

© جميع الحقوق محفوظة ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن مسبق.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى

البريد الالكتروني للكاتب

Kdami2013@gmail.com

المحتوى

1- سنجمعُ الرّحيق
2- الثعلبُ الذي تميَّز
3- البلبلُ الحيران
4- تحت ظلال البلشون
5- شتاءُ القلوبِ الدافئة
6- السباقُ الذي غيّر وجه العيد

سنجمعُ الرّحيق

كانت خليةُ النحل تشعر بالامتنان البالغ لشجرة الجوز العجوز، فطوال أعوام بقيت الخليةُ هنا في مأمَنٍ من أعدائِها الدبابير الحُمر. على ضفافِ النَّهر نمت هذه الشجرة حتى بلغَ عمرُها مئاتِ السنين، كانت قد احتضنت الكثير من كائنات الغابة، وحمتهم من الأعاصير، ومن الوحوش المفترسة، كما أنها أنعمت بأوراقها الندية على البعض الآخر، لذلك فقد كان الجميع يحب الشجرة العجوز، ويكنّ لها بالغ الاحترام والتقدير.

واستقرت خليةُ النحل في تجويفٍ صغيرٍ من تجاويف جذع الشجرة، إنها لا تهدأ. بَنَت في هذا التجويف أقراصًا من الشمع تملؤها حينًا بالعسل، وتحتمي بها حينًا آخر من البرد، وتضع فيها البيوض التي ستفقس عن صغارها بعد حين.

دعونا ندنو أكثر من باب الخلية ذو الشكل البيضوي الصغير لنعرف مصدر هذا الطنين الذي يملأ الجو صخبًا، إنها الملكة هناك في وسط الخلية توجه أوامرها دون أن تهدأ، لا يسكن لها قرار وهي تتجول في أرجاء مملكتها؛ لتتفقد العمل وتطمئن على الأفراد، وتضع الخطط التي تحفظ حياةَ الجميع. إنها تبدو أكثر نشاطًا هذا اليوم، لأن العاملات من النحل قد جلبْن الكثير من حَب الطلع ورصصْنه في الحجرات السداسية، وختمْن الكثير من الأقراص،

لكن أمرًا ما يقلقها، إنها تشعر حقًا أن خطرًا داهمًا يهدد حياة الخلية ونظامها الدقيق.

كانت تراقب العاملات ينطلقن دون كلل لجلب المزيد، فما أجمل الإنجاز الذي يفيد الجميع. لكنها لا تجدُ نحلةَ القطن.

وقفَ عددٌ من الذكور على البوابة يحرسون المكان متيقظين لأي هجومٍ طارئ من الدبابير، وقد اتخذوا كلّ التدابير لحماية المجموعة إما بسدِّ البوابة أو بإيقاع الدبور في الفخ، حيث يتقدم أحد الحراس يتصدى للدبور المهاجم، فيلاحقه الدبور بينما يطير الحارس بعيدًا عن الخلية ثم يتبعه عدد آخر من الحراس الذين يشتتون انتباه الدبور ويعودون سريعًا إلى خليتهم.

تقدّمت الملكة من البوابة وسألت أحد الحراس:

- هل عادت نحلةُ القطن؟
- كلاّ سيدتي، لقد خرجت منذ بزوغ الشمس ولم تعد البتة.

هزّت الملكة رأسها وعادت الهوينى لتتابع عملها، لا بدّ أن تعاقبَ نحلةَ القطن على تأخرها.

عند الصباح الباكر، وبعدَ أن حيَّتْ أشعةُ الشَّمس أوراقَ الشَّجر، وأيقظت كائناتِ الغابة، ودَبَّ النشاطُ فيها لتسعى إلى رزقها في هذا اليوم الجديد، كانَ على نحلةِ القُطن أنْ تنطلقَ مع صديقاتها للبحث عن الأزاهير النديّة لامتصاص رحيقها، وجمعِ ما عليها من غبار الطلع. لكنها كانت تفكر

طوال الليلة الماضية بحياتها في هذه الخلية، وتبحث عن حل. صحيح أن الجميع يحبها ويطلقون عليها لقب نحلة القطن لأنها تحب أزاهير القطن أكثر، لكنّ أمورًا أخرى باتت تقلقها جدًا.

وفي الطريق توجَّهت إلى صديقاتها من العاملاتِ قائلةً:

- أشعرُ بالملِ من هذا العمل المتكرر.

تفاجأت صديقاتُها العاملات، بينما استمرت هي تقول:

- نحن نتعبُ في جمع الرّحيق كلَّ يوم، وغيرُنا يبقى في الخليّة متكاسلًا ليس له عملٌ سوى الأكل والشرب.

صاحت رفيقاتها في استغراب:

- مَن تقصدين؟

قالت النحلةُ وهي تحطُّ على زهرةِ أقحوانٍ بيضاء:

- الذكورُ لا يعملون أبدًا، والحرَّاس يقضون وقتًا طويلًا أمامَ باب الخلية دون عمل، والمجموعة التي تبقى ملاصقةً لسيدتنا الملكة أيضًا ليس لها عمل. وأنا أكدُّ كلّ يوم بحثًا عن أزهار القُطن لأعود لهم بالرّحيق.

سَخِرت العاملاتُ من كلامها، وردَّت إحداهُن:

- إنكِ لا تدركين معنى الخلية، إنَّ خليتنا مجموعةٌ متكاملةٌ، ولكلِّ فرد من أفرادها دوره الخاص، ودورُنا هو جمْع الرّحيق.

حرَّكت نحلةُ القُطن أجنحتها وقفزت إلى زهرةٍ أخرى وهي تقول:

- فكرت مليًا في الأمر، وأدركتُ أن بوسعي بناء مملكتي الخاصة.

قهقهت إحدى صديقاتها وقالت:

- لكنكِ لا تستطيعين وضع البيوض، الملكة وحدها من تفعل ذلك.

صاحت نحلة أخرى من على زهرة شقائق النعمان:

- ومن يحميكِ من الدبابير أيتها الغبية؟

رفعت رأسها غاضبةً وأجابت:

- لا حاجةَ لي بعد اليوم إلى الخليّة، ولا حاجة لي إلى الحرّاس وغيرهم، سوف أعمل وحدي لأجني ثمار تعبي.

اقتربت منها صديقتها وقالت:

- لا بد أنكِ تمزحين، لا يمكنكِ البقاء على قيد الحياة وحدك.

صاحت نحلة القطن:

- سترون كيف أبني مملكتي وأحمي نفسي من الدبابير، سأعمل لأجني ثمار تعبي، ولن أدع أحدًا يقاسمني ثمرة مجهودي.

قالت صديقتها غاضبةً:

- إنكِ أول نحلة في تاريخنا تفعل ذلك. ستغضب الملكة كثيرًا وقد تعاقبك أشد العقاب.

حطّت إحدى النحلات العاملات على بوابة الخلية حاملةً تحت جناحيها ما استطاعت حمله من حبات الطلع، وقبل أن تدخل أوقفها الحراس وقالوا لها:

- هل رأيتِ نحلة القطن؟ إن الملكة تسأل عنها.

تردّدت النحلة قليلًا في الإجابة لكنها تشجعت قائلةً:

- سأخبركم بما سمعت، إنها تفكر في مغادرة الخلية، وبناءِ مملكتها الخاصة.

صرخ الحراس مشدوهين:

- ماذا؟ هل أصابها الجنون؟ هذا سيكلّفها الكثير.

وسرعان ما وصل الخبر إلى الملكة التي لم تصدّق ما سمعت بادئ ذي بدء، إلا أنها أدركت خطورة الأمر لو كان ما تفكر به نحلة القطن صحيحًا. فأوعزت إلى الحراس أن يبحثوا عنها في الحال ويعيدوها إلى الخلية.

انطلق الحراس في الحال متوجّهين إلى حقل الزهور حيث أشارتْ لهم النحلة العاملة؛ ليعودوا بنحلة القطن إلى الخلية.

كانت نحلةُ القطن تقول لصديقاتها:

- سأعيش في خليتي الخاصة دون أن أتلقى الأوامر من الملكة المتعجرفة.

ثم حلَّقت عاليًا وحوَّمت حول رفيقاتها، بينما كانت رفيقاتها تلوِّحْنَ لها أن تبقى ولا تتبع طيشها.

لكنّ النحلةَ راحت تحلّق مبتعدةً، وهي تصيح:

- الوداع... الوداع.

فكرت النحلات فيما يمكن أن يفعلنه لإنقاذ صديقتهن، فقررن العودة سريعًا إلى الخلية لإخبار الملكة بالأمر، وفي الطريق صادفن الحراس، فأخبرنهم أن نحلة القطن فارقت الخلية لتعيش وحيدةً.

سأل الحراس عن الوجهة التي اتخذتها نحلة القطن، وسرعان ما انطلقوا خلفها.

أدركت نحلةُ القُطن منذ الوهلة الأولى أن بإمكان الحراس أن يتبعوها بكل سهولة، ويجدوا مكانها ويعيدوها إلى الخلية رغم أنفها، لذلك فقد قررت التوجه إلى حقل القطن الذي اكتشفته منذ يومين، ولم تخبر به أحدًا، إنه حقلٌ واسع يحوي ملايين الزهور البيضاء المختبئة خلف أشجار الجوز

الباسقة، التي لم يفكر النحل حتى اليوم باكتشاف ما وراءها، فهناك سوف تكتسب رائحة أخرى، وتغير من طنينها، وتتنقل من زهرة إلى أخرى ليضيع أثرها في الحقل الشاسع.

فرحت النحلةُ كثيرًا عندما وصلت إلى حقل القطن المليء بالأزاهير البيضاء النديّة، كانتْ تحبُّ أزهارَ القُطن المفيدة، فراحت تغني بسرور:

سأجمعُ الرحيق

في بيتيَ الأنيق

وأصنعُ العسل

بجدٍ لا كسل

وأقطعُ الدروب

وحدي بلا وجل

أبحث عن زهرٍ جميل

أنا وحدي بلا دليل

وأجمعُ الرَّحيق

وحدي بلا صديق

وأمضي وحدي

أعيشُ وحدي

أعملُ وحدي

وحدي وحدي

ليس من رفيق

بحثت النحلةُ عن مكانٍ آمنٍ تختفي فيه عن أنظار الحراس، وعن الدبابير الخطرة. فوجدت شجرة جوز عملاقة على أطراف حقل القطن سمحت لها أن تتخذ من أحد تجاويفها مسكنًا لها.

لكن الشجرة قالت:

- كيف بإمكان نحلةٍ وحيدة بناء خلية؟

أجابتها النحلة:

- سترين أيتها الشجرة الطيبة، وستكونين شاهدة على قدراتي.

اختفت النحلة في تجويف شجرة الجوز بعد أن غيّرت رائحتها وطنينها وراحت ترتب بيتها الجديد بهمة عالية.

استطاع الحراس تعقّب الطنين ورائحة نحلة القطن إلى أن وصلوا حدود سهل واسع، ووقفوا أمام أشجار جوز كثيفة، تفاجأوا بتلاشي رائحة النحلة، فرائحة الجوز تطغى على كل الروائح.

- لكنها هنا في مكان ما، صاح أحد الحراس.
- نعم إنها هنا، في أحضان شجرة جوز ما، في هذا السهل الذي لا نجد له نهاية.
- هل سنبحث عن إبرة في كومة قش؟
- وهل نعود إلى الملكة خائبين؟

تردّد الحراس كثيرًا في اتخاذ القرار المناسب، انتظروا مفاجأة قد تحدث، ولما طال انتظارهم قرروا العودة.

كانت الشجرة العجوز تحاول أن تهدئ من روع الملكة وهي تقول لها:

- لا بدّ أن تعود نحلة القطن، فلم أسمع في حياتي أن عاشت نحلةٌ بمفردها.

أجابتها الملكة:

- نعم أيتها الشجرةُ الحكيمةُ، أعلم أنه لا توجد نحلةٌ يمكن أن تعيش بمفردها، وهذا ما يقلقني جدًا، فنحلة القطن قد ترتكب حماقةً.

أجابتْها الشجرةُ العجوز:

- لا تقلقي أيّتها الملكة، أظنُّ أنّها ستعودُ قبل حلول الظلام.
- أتمنى ذلك، لكنني قلقة من تهورها.

وعندما عاد الحراس وأخبروا الملكة بفرار نحلة القطن، وقرارها في العيش مستقلة. ازدادت غضبًا، وراحت تصرخ:

- من تظنُّ نفسها هذه النحلة الصغيرة؟

تجمعت العاملات من حول الملكة وأخبرنها أنهن حاولن ردعها وإقناعها بالعدول عن فكرتها، إلا أنها أصرّت على خوض تجربتها.

سألت الملكة:

- وهل تعلمون وِجهتها، هل أفصحتْ عن مكانٍ ما قصدته؟

أجابت النحلات العاملات:

- كلا، إنها لم تفصح عن ذلك البتة.

صرخت الملكة:

- علينا البحث عنها، وإنقاذها مهما كلّف الأمر.

وفي حقل القطن هبط الظلام سريعًا، ووجدت نحلة القطن مكانها دافئًا بما فيه الكفاية، وتبادلت أطراف الحديث مع شجرة الجوز قبل أن تخلد للنوم.

وفي اليوم التالي استيقظتْ قبل شروق الشمس، فأمامها عملٌ شاقٌ، في مملكتها الجديدة، أعجبَتْها رائحةُ شجرة الجوز الزكية، فراحت تحلق بين أغصانها وتداعب أوراقها وتستكشف المكان جيدًا، أحسّت بالغبطة، إنها ستكون مليكة هذا المكان الفسيح، يبدو المكان آمنًا، فشجرة الجوز تنشر أذرعها في محيط واسع، وتصنع بأوراقها ظلًا وارفًا.

وعندما بزغت الشمس همّت بالانطلاق نحو حقل القطن لتبدأ في صنع الشمع فتأسس به خليتها، وتصمم المدخل الذي سيحميها من الدبابير، وتختار النموذج الأنسب لأقراص العسل.

وقبل أن تحلق النحلة نادتها شجرة الجوز:

- أيتّها النحلة إذا كنتِ ستحلقين نحو قرص الشمس، راقبي جدول الماء، لتخبريني هل بدأ بالتدفق إلى هنا.

ردّت النحلة على عجل:

- نعم بكل تأكيد، سأبحث عن جداول أخرى قد تجد طريقها إلى هنا.

في خليّة النحل كانت الملكة تأمر الحراس بأن يتوزعوا في كل مكان ويبحثوا جيدًا عن النحلة المفقودة، وتأمر العاملات أن تتبعن رائحة رفيقتهن علّهن تصلن إلى شيء. لقد ساد جو حزين جميع أرجاء الخلية، فهناك أحد الأفراد في خطر.

تفاجأت نحلة القطن بالمساحات الشاسعة البيضاء الممتدة من تحتها، والمسيّجة بإطار أخضر من أشجار الجوز العملاقة، ابتهجت كثيرًا فهي لم تعد بحاجة للبحث عن الأزهار المناسبة، وإضاعة الوقت محلّقة دون جدوى، إنها الآن تستطيع أن تستثمر كل وقتها في العمل، فأمامها ملايين الأزهار البيضاء، ستحط عليها وتجمع منها غبار الطلع والرحيق.

لكنها قبل أن تباشر في عملها أرادت أن تفي بوعدها لشجرة الجوز وترى إلى أين وصلت مياه الجدول. طافت في المكان متحمسةً، فهي تريد أن تقدم خدمةً جليلةً لصديقتها التي احتضنتها بالأمس. هبّت متشوقةً تتبع مجرى الجدول إلى أن وقعت عيناها على المياه، إنها تتدفق من هناك، من أعالي الجبال، وتخترق الصخور وجذوع الأشجار، وتحفر مجراها نحو أشجار الجوز، سيمتلئ المجرى بالماء عمّا قريب.

لم تكتفِ بذلك بل راحت تحلق في الأجواء لترى إن كانت هنالك جداول أخرى قد تسيل نحو حقول الجوز، لكنها انتبهت لأمر مهم، فهي وحيدةٌ ولا يوجد حراس لحمايتها من الدبابير، لذلك يجب أن تتوخى الحذر ولا تبتعد كثيرًا.

رجعت محمّلة بالكثير من غبار الطلع، وأخبرت شجرة الجوز عن الجداول المتدفقة نحوها، ثم بدأت بصناعة الشمع وتحديد المدخل، أمامها عملٌ مجهد. ظلت تروح وتجيء دون كلل، وتعمل بدأب، بينما كانت شجرة الجوز تزداد إعجابًا بإقدامها وتفانيها في العمل.

وسرعان ما صارت الأقراص جاهزةً لتمتلئ بالعسل، كانت فرحتها لا توصف. وكذلك كانت شجرة الجوز، تفرح بحذر لوجود صديقة نشيطة في جوارها.

في خلية النحل كان اليأس قد دبَّ في قلوب الجميع، فرفيقتهم لا أثر لها، وبدأت تسري الشائعات.

- يقولون إنها هاجرت بعيدًا، أبعد من أي مكان يمكن أن يصله الحراس.
- قد تكون الآن قد بنت مملكتها الخاصة كما كانت تتمنى.
- لا بد أنها نادمةٌ وتخطّط للعودة.
- هل ستقبلُ بها الملكة ثانيةً؟
- ربّما وقعت فريسةً لدبور جائع.

إلى جانب ذلك بدأت أفكار أخرى تسري بين العاملات، حين يتذكرون كلام رفيقتهم، وبدأت أصوات عديدة تعلو دون حياء:

«لماذا لا نفعل مثلها، ونبحث عن حقلٍ آخر نملك فيه كل شيء؟»
«هل حقًا نحن نعمل حتى يجني الآخرون ثمار تعبنا؟»
«الملكة المتغطرسة لا تجيد سوى إعطاء الأوامر.»

ولم تكن الملكة بمنأى عمّا يجري، بل كانت تسمع اللغط والهرج، فيزداد خوفها من انفراط عقد الخلية، كانت تصمت وتنتظر أمرًا ما.

ومرَّت أيامٌ واشتاقت النحلة إلى رفيقاتها، لأنَّها لم تعتَدْ أنْ تعيشَ وحدها من قبل، إلا أنها لم تكن تحب الهزيمة.

بدأت تشعر أن ساعات النهار لم تعد كافية لإنتاج ما تريد، إنها تمضي وقتًا طويلًا جدًا في صنع الأقراص، ولم تملأ إلا بعض الحجرات بالعسل. إنها يد واحدة فقط، لا توجد يدٌ أخرى تعاونها. كما أنها انتبهت إلى الخلل الواضح في تصميم الأقراص، وإلى الثغرات في البوابة، إنها تنفق الكثير من الوقت في إنتاج القليل من العمل.

لذلك كان لا بد أن تستشير شجرة الجوز.

في الصباح الباكر وقفت النحلةُ أمام مدخل خليتها وراحت تسأل الشجرة:

- أيتها الصديقة، أنا أكدُّ طوال اليوم وأحرص على الوقت، لكني لا أجد في المقابل إنجازًا أحرزته.

قهقهت الشجرة ومالت بأغصانها، ثم قالت:

- هذا أمرٌ طبيعي، ماذا بمقدور نحلةٍ وحيدةٍ أن تنجز؟
- والأقراص التي أصنعها ليست كأقراص خليتنا الكبيرة، كانت تلك في غاية الإتقان.

تنحنحت الشجرة وأجابت:

- لأن الملكة كانت تدير الأمر بخبرتها المعهودة. ورفيقاتك يضفن من جهدهن وخبراتهن، لذلك فأنتِ تحتاجين إلى المزيد من الوقت لاكتساب الخبرة وإتقان عملك.

حلّقت النحلةُ وقد هدأ بالها قليلًا، وكانت تقول وهي تبتعد عن الشجرة:

- إذا كان الأمر يتعلق بالوقت فسأتعلم وأكتسب الخبرة.

وبدأت رائحةُ العسل تفوح في المكان، وتتسرّب من بين أوراق الأشجار وأعناق الأزاهير؛ لتكون رائحة جديدة تضاف إلى عبق المكان.

وتتبّعت الدبابيرُ رائحةَ العسل حتى وجدت مكانه.

- غريب، لا يوجد حراسٌ هنا.
- احذروا فقد يكون فخًا.

اقتربت الدبابير بحذر من التجويف وهم يراقبون المكان.

- لا يوجد حراس، رائحة العسل الشهي تملأ المكان.
- المدخل واسعٌ وبإمكاننا الدخول بسهولة.
- هيا إلى العسل.

كان الهجوم في غاية البساطة، كان المكان خاليًا تمامًا إلا من أقراص العسل الشهي. كانت الدبابير في غاية السعادة.

وعندما عادت النحلة وجدت الأقراص مفرغةً من العسل، يا إلهي لقد ضاع جهدي سدى. صاحت بجنون:

- من الذي اقتحم بيتي؟ من التهم العسل.

وجاءها الجواب من الشجرة:

- لم أستطع فعل شيء، لقد هجمت الدبابير بكل بساطة، وسَطَوا على كل شيء.
- آه الدبابير، لم أكن أحسب أنهم سيصلون إلى هنا، كنتُ أظن أن أوراقك العريضة سوف تخبئ بيتي.
- لكن رائحة العسل فاحت وانتشرت في كل مكان. والمدخل واسعٌ بما يكفي لدخول دبور.

انهارت النحلة وهي تراقب الخراب الذي طال بيتها، ولا تدري كيف يمكن أن تبدأ من جديد، وتحمي نفسها من الدبابير.

في اليوم التالي لم تذهب إلى حقل القطن، أرادت أن تحرس بيتها، وترى إن كانت الدبابير ستعود ثانية. فاختبأت في مكانٍ قريب، وراحت تراقب بحذر شديد. ولم يمضِ وقت طويل حتى عادت الدبابير بأعداد كثيرة، وطافت في المكان ودخلت عبر المدخل، وفتّشت عن بقايا العسل، بينما كانت تتحرق أسىً ولوعة؛ فهي لم تكن قادرةً على حماية مخزونها من العسل؛ لأنها لم تعمل سابقًا في الحراسة، وكان هناك على الدوام من يحرسها في الخلية.

احتارت النحلةُ في أمرها، ولم تعرف ماذا تفعل أو كيف تتصرف، فقد كان هناك من يدبّر أمورَ الخلية على الدوام.

وعندما كانت تسأل شجرة الجوز كانت تجيبها بأنها لا خبرة لها في أمور النحل.

وفي صباح اليومِ التالي وبينما كانت تنطلقُ إلى حقل القُطن تفاجأت بسربٍ من الدّبابير الكبيرة التي اعتادت أن تتصيَّد النحلات الشاردة.

أسرعت النحلةُ المسكينةُ هاربةً وهي تستنجد وتصيح (أنقذوني... أنقذوني...).

لم يكن هناك أحد يسمع زعيبها.

وهي تعلم أن الدّبابير تفوقها سرعةً، وأنهم سيلتقطونها بسهولة.

تكاد حياتُها تكون ثمنًا لقرارها المتسرع، وقرّرت في نفسها أنها إذا نجت اليومَ فيجب أن تعود إلى الخلية، لقد شعرت الآن بمعنى الأمان، تكادُ أنفاسُها تنقطع.

كانت الدّبابير قريبةً جدًا حتى إن طنينها أصبح كالهدير. وأدركت النحلةُ أن لا فائدةَ من الهرب.

وكادت تستسلم لولا أنّها رأت جذعَ شجرةٍ قريبةٍ فيها ثقبٌ صغيرٌ جدًا، فدفعت بنفسها نحوه واختفت فيه. كانت الدّبابير تحيطُ بالمكان وأصواتُها تثير الرُّعب، لكنَّ نحلةَ القطنِ كانت متكوّمةً في الثقب الذي لا تدخله الدبابيرُ الكبيرة.

«لماذا لم أجعل مدخل بيتي صغيرًا بحجم هذا الثقب؟ كنتُ أعيب على خليتنا بوابتها الضيقة، الآن فهمت الحكمةَ من جعلها صغيرة. آه لقد فات الأوان. »

ظلّت النحلةُ المسكينةُ محبوسةً في ذلك الثقب حتى هبط الليل، وعندما اختفت أصواتُ الدبابير تسلّلت بهدوء وحذر، وشقّت طريقها عبر الأشجار لتذهب إلى ضفاف النهر؛ لتبيت هناك.

ومع إشراقة الصّباح حوَّمت حول المكان تبحث عن رفيقاتها اللّاتي يأتين لجمع الرّحيق حتى وجدت رفيقاتها العاملات تتنقَّلْنَ من زهرةٍ إلى أخرى في مكان قريب.

أسرعت النحلةُ إلى رفيقاتها وبدأت تبادلهُنَّ الشَّوق والترحيب.

قالت النحلةُ لرفيقاتها:

- هل تفقَّدَتْني الملكة؟ هل علمتْ بغيابي؟

أجابت إحداهن:

- أجل، لقد غضبت سيدتنا الملكة كثيرًا، بل وحزنت عليكِ، لأنها تعلم أنك لن تستطيعي العيش وحدك، ولا تملكين القوة للدفاع عن نفسك، فربما يأكلك دبور جائعٌ أو جرادٌ عابر، أو يقضي عليك نملٌ أسود.

قالت نحلةٌ أخرى:

- لقد كانت ترسل الحراس كل يوم للبحث عنك.

لكن نحلة أخرى اقتربت منها وهمست في أذنها:

- أخبرينا عن حياتك الجديدة، كيف عشتِ وحدكِ؟ وهل بإمكاننا أن نفعل مثل؟ هناك الكثير من العاملات يفكرن مثلك.

صاحت النحلة محذرة:

- كنتُ أظن أني قادرةٌ على فعل كل شيء وحدي، لكني تعلمت أمرًا ما كنت لأتعلمه لو بقيت في خليتنا.
- ماذا تعلمتِ؟ أخبرينا.

توقفت النحلة قليلًا ثم تنقلت إلى زهرة أخرى وبدأت تقول:

- تعلمتُ أنني لا أساوي شيئًا بعيدًا عنكم.

صاحت نحلة أخرى:

- لقد علَّمَتنا الملكة أنْ نتعاون دائمًا حتى تستمرَّ حياةُ الخلية، وإذا شذَّ فردٌ أو تقاعس فإنه يفتحُ ثغرةً خطيرةً في الخلية يجب سَدُّها.

قالت نحلةُ القُطن:

- أريد العودة إلى الخلية.

وانطلق الجميع مسرورين نحو الخلية ليفاجؤوا الملكة وباقي الأفراد بعودة صديقتهم المفقودة. وأسرعت نحلة القطن إلى سيّدتها الملكة التي كانت غاضبةً جدًا.

قالت النحلة:

- سيّدتي الملكة، أرجو أن تسامحيني على خطئي، فأنا ما كنتُ أعرف معنى التعاون.

قالت الملكة:

- وهل تعلمتِ الآن؟

قالت النحلة:

- بل تعلمتُ أكثر من ذلك، لن أفارقكم ما حييت.

ضمتها الملكة بحنان وهي تقول:

- أهلًا بكِ في خليتك أيتها النحلة.

حلّقت نحلة القطن حول الجميع وراحت تقول:

- لقد وجدتُ حقلًا مليئًا بأزهار القطن.

فرحت الملكةُ وقالت للنحلة:

- شكرًا لأنك تعاونتِ جيدًا، وقدّمتِ فائدةً كبيرةً للجميع.

وفي اليوم التالي بدأت جميعُ العاملاتِ بترديد أغنية النحل المشهورة، وهُنَّ في طريقهنَّ إلى حقلِ القطن:

سنجمعُ الرحيق

في بيتنا العتيق

ونصنعُ العسل

بجدٍ لا كسل

ونقطعُ الدروب

معًا بلا وجل

نبحثُ عن زهرٍ جميل

جميعنا بلا دليل

ونجمعُ الرحيق

ونصنع العسل

لنمضي معًا

جميعنا معًا

إلى حقلِ القطن

إلى زهرِ القطن

***

الثعلبُ الذي تميّز

على أطرافِ قريةٍ جميلةٍ حيثُ تمتدُّ أشجارُ الزيتون نحو الأفق من جهةٍ، وترتفعُ قممُ الجبال إلى عَنان السماء من جهةٍ أخرى، كان كوخُ الجدّة يبدو غارقًا في القدم، ويحتاج إلى إصلاحِ جدرانه وسقفه المهترئ قبل أن يحلّ الشتاء.

لكنَّ أنواعَ الأشجار خلفَه، وتنوّعَ ألوان الورد حولهُ، وروائحَ الياسمين والنرجس والرياحين التي تفوح من جوانبه، تجعلُ منه قصرًا يشتهي كل إنسانٍ أن يسكنه.

كانت الجدةُ تعتني بحيواناتها الأليفة؛ فقد كان عندها عددٌ كبيرٌ من الدجاج، وبقرةٌ بنيةُ اللون، وعنزتان ذواتا شعرٍ أسود، وقطّةٌ مخطّطةٌ باللون الرمادي والأسود. وكان يزورُ الجدةَ من حين إلى آخر ثعلبٌ جريءٌ ذو لون رائع، حيث كانت الجدّةُ تعطف عليه وتطعمه وتسقيه.

قال الثعلبُ للجدّة ذات يوم:

- أنتِ جدّةٌ رائعةٌ وسوف أقومُ بخدمتك.

قالت الجدّةُ:

- حقًا أصبحتُ بحاجةٍ إلى من يساعدني.

قال الثعلبُ وهو يبتسم:

- ما عليكِ إلا أن تصفّقي بيديكِ وتصيحي (برق ... برق) حتى أكون بين يديك بسرعةِ البرق.

أرادت الجدّةُ أنْ تختبرَ أمانةَ الثعلبِ فقالت له:

- إذًا إدفع بالدجاجاتِ إلى الخُمِّ، وأغلق بابه بحجرٍ كبير.

أسرعَ الثعلبُ إلى مهمّته نشيطًا، وراح يركضُ خلفَ الدجاجات ويصيحُ بصوتٍ عالٍ (هيا إلى الخمّ بسرعة قبل أن يحلَّ الظلام).

في المساء وقبلَ أن تخلُدَ الجدّةُ إلى النوم، ذهبت لتتفقَّد خُمّ الدجاج فوجدت أنَّ الثعلبَ نجحَ في مهمته، وجمع كلَّ الدجاجات في الخم، لكنّه لم يُحكم إغلاق البابِ جيدًا، فصفَّقت بيديها ونادت: (برق... برق)، فوثب الثعلب مسرعًا، ووقفَ بين يديها وهو يحرّك ذيله.

قالت الجدةُ:

- شكرًا لك أيها الثعلب فقد نجحتَ في مهمتك.
- لا شُكرَ على واجبٍ أيتها الجدةُ، أنا رَهْنُ إشارتك.
- حسنًا، لكنّك لم تُحكم إغلاقَ باب الخم جيدًا.

قال الثعلبُ وهو يتنحنح:

- آه! حقًا؟ نسيت أن أخبرك أنني لم أستطع دفعَ الحجر أكثر من ذلك.

قالت الجدةُ:

- لكنَّ هذا سوفَ يسمحُ للدجاجات بالخروج من الخم، أو للثعالبِ والكلابِ بالدخول.

قال الثعلبُ: سوفَ أحرسُ الخمّ حتى الصباح.

قالت الجدةُ: اعقلها وتوكّل.

وأحكمت الجدة إغلاقَ بابِ الخم وذهبت للنوم.

وفي الصباح كانت الجدةُ قد جهَّزت نفسها للسَّفر إلى قريةٍ بعيدةٍ لتهدي سلةً من البيض لحفيدتها التي تسكنُ هناك مع زوجها وأولادها. وقبل أن تغادر كوخها، جاءَ الثعلبُ فوجدَ الجدةَ تهمُّ بالسفر فقال لها:

- إلى أين تذهبين أيتها الجدّة؟

قالت الجدةُ: سوفَ آخذُ سلةَ البيضِ هذه إلى حفيدتي في القريةِ الواقعةِ خلفَ الجبل.

قال الثعلبُ: لكنّ المسافة طويلةٌ جدًا، وسلةُ البيض ثقيلةٌ، ربّما لا تستطيعين حملها.

قالت الجدةُ: صدقتَ، لكنْ لا أحد آخر يوصلُ سلةَ البيض لحفيدتي.

قال الثعلبُ: أنا آخذها، ولكن ما الذي في داخلها؟

قالت الجدةُ: فيها كميةٌ من الجوز القاسي.

مضى الثعلبُ بالسّلة مسرعًا، في حين انصرفت الجدةُ إلى عملها وهي سعيدةٌ بوجود من يريحها من هذا السفر.

عادَ الثعلبُ بعد ساعات إلى الجدّةِ وقال لها:

- أيَّتها الجدّةُ إنَّ حفيدَتَكِ تشكُرُكِ كثيرًا، ولكنّها وجدتْ في السّلة بيضًا ولم تجدْ جوزًا.

قالت الجدّةُ: آه! يبدو أنني أعطيتكَ سلةَ البيض بدلًا من سلةِ الجوز.

وشعرت الجدَّةُ بالغِبطةِ والطمأنينة وقرّرت أنْ تعتمدَ على الثعلب في كل شؤونها.

وأصبحَ الثعلبُ مشغولًا بالأعمال التي تطلبها منه الجدّة، فقد كان يقوم باصطحاب العنزات إلى المراعي، ويشرفُ على دخولِ الدجاجاتِ وخروجها مِنَ الخم، ويجمعُ البيضَ، ويرافق الجدّة إلى سوق القرية لبيع سلالِ البيضِ والجبن واللبن. ويحمل ما تعجز الجدّةُ عن حملهِ في الرحلة الشاقة.

وذاتَ يـومٍ كانـت الجـدّةُ تعـدُّ الـدجاجات: (واحـدة... اثنتـان... ثـلاث... أربع...) آه! هناك دجاجاتٌ غائبةٌ. وصفّقت الجدة بيديها ونادت:

(برق... برق)

ولمّا حضرَ الثعلبُ قالت له غاضبةً: أينَ باقي الدجاجات أيها الثعلب؟

قال الثعلبُ وهو يلتفت يمنةً ويسرة ويحك رأسه: هذه هي كل الدجاجات أيّتها الجدّة، ولا توجدُ دجاجاتٌ أخرى.

قالـت الجـدةُ: لا، بـل عنـدي دجاجـات أخـرى لا أراهـا هنـا. دجـاجتي البيضـاء المخططة بالرمادي، ودجاجتي السوداء، ودجاجتي البنية التي تصيح بقوة قبل أن تبيض.

قاطعها الثعلبُ وهو يحرك ذيله: لكنّي أقوم بحراستها، ولا يمكن أن يسرقها أحدٌ.

عادت الجدةُ إلى الكوخ وهي تشكّ في أمر الثعلب، وتقول لنفسها:

(كيف أثق بثعلبٍ ماكرٍ)، وقررت أن تراقبه عن كثبٍ باستمرار.

لم يعرف الثعلبُ أنَّ حفيدةَ الجدّةِ جاءت اليوم لزيارتها، فقد كانَ يمرحُ في الغابة مع رفاقه الثعالب، ويتباهى بالمكانةِ الرفيعةِ التي يحظى بها عند الجدّةِ، ويخبرهم بما يحصلُ عليه من دجاجٍ طريٍ، وبيضٍ وعسلٍ لذيذ. وكانَ جميعُ رفاقه يحسدونهُ على ذلك.

قالت الجدّةُ لحفيدتها: كيف وجدتِ البيضَ الذي بعثتهُ لكِ مع الثعلب؟

تفاجأت حفيدتها وقالت: أيُّ بيضٍ وأيُّ ثعلب؟

- ألم يُحضِر لكِ الثعلبُ سلةَ البيض؟
- كلا.
- ولا سلةَ الجبن؟
- كلا.
- لكنّي بعثتُها لكِ.
- لمْ يصلني شيءٌ يا جدتي. وغابت أخبارك عني فأتيت لأطمئن عليكِ.

غضبت الجدةُ غضبًا شديدًا ولامت نفسها إذْ وثقت بهذا الثعلب الذي لم تختبره جيدًا، وعزمت على أن تعلمهُ درسًا لا ينساهُ أبدًا.

طبخت الجدّةُ كميةً من السُّكر مع الماءِ وملح الليمون، حتى تعقّد وأصبح كالعسل، ووَضَعَتْهُ في الجَرّة، وانتظرت عودة الثعلب.

وعندما لمحته قادمًا يختال بذيله، ويقترب من الكوخ صفّقت بيديها ونادت: (برق... برق)، فحضرَ الثعلبُ مسرعًا، وهو يقول:

- اعذريني أيتها الجدة، كان عليّ أن أزور أصدقائي.

قالت الجدةُ وهي تنظر إليه بطرف عينها:

- حسنًا فعلتَ أيها الثعلب، لقد أحضرتُ لك اليومَ عسلًا لذيذًا.

وأخذتْ تصبُّ العسلَ من الجرّةِ على صخرةٍ مسطحةٍ وهي تقول:

- هذا من أجلكَ أيّها الثعلبُ النشيط.

راح الثعلبُ يلعقُ بشراهةٍ وهو مسرورٌ جدًا. وفي هذه الأثناء، أفرغت الجدّةُ الجرّة على ذَنَبه مِنْ دون أنْ يشعرَ.

ولمّا انتهى الثعلبُ وأرادَ أن يذهبَ، لم يستطع أن يتحركَ من مكانهِ؛ فقد كان ملتصقًا بالصخرة. وحاول أنْ يشدّ نفسهُ بقوةٍ إلا أنّهُ شعرَ بالألم الشديد، فطلبَ من الجدة أن تساعده.

قالت الجدّةُ: سوفَ أساعدك أيُّها الثعلبُ وأحرّركَ من هذهِ الصخرةِ. وراحت تنادي حفيدَتها.

خرجت حفيدَتُها مِنَ الكوخِ وفي يدها فأسٌ.

صاحَ الثعلبُ مذعورًا: ماذا ستفعلين أيّتها الجدّةُ؟

قالت الجدّةُ: لابدّ من أنْ أقطعَ ذَنَبك حتى تتحرّرَ من هذه الصخرةِ.

توسّلَ الثعلبُ إلى الجدّة ألا تفعل ذلك، لكنّ الجدةَ قالت له:

- سوف آخذُ ذَنَبك ثمنًا لسلالِ البيضِ التي سرقتها.

التفتَ الثعلبُ إلى الحفيدة يناشدُها كي تساعدهُ، لكنّها تركته وهي تقول:

- لابدّ من أنْ ينال المخادعُ عقابه.

وهَوَت الجدّةُ بالفأسِ على ذَنَبِ الثعلبِ فقَطَعَتهُ، وأخذَتْهُ إلى الكوخِ، بينما تحرّرَ الثعلبُ من الصخرة، وفرَّ هاربًا إلى الغابةِ.

تجمّعت الثعالبُ حوله بكثرةٍ وبدأت الأسئلةُ الساخرةُ تنهالُ عليه:

- أين أضعْتَ ذَنَبكَ يا صديقي؟
- هل أكلهُ جرذٌ أم فأرٌ؟ هل قطعهُ لك كلبٌ شرسٌ؟
- هل استشرى فيه مرضٌ عضالٌ فبتَرْتَه؟

حاولَ الثعلبُ أن يُخفيَ وجههُ عن رفاقه الثعالب، لكنّهُ كانَ يشعرُ بالذّل والهَوان والندم، ورفاقُهُ لا يكفّون عن السُّخريةِ منهُ وتحقيره.

تفاجأَ الثعلبُ في اليومِ التالي بأمرٍ خطيرٍ جدًا، لقد جاءَهُ عددٌ من الثعالبِ وقالوا له:

- أيّها الثعلبُ الأبتر، لقد قرّرنا معاشرَ الثعالبِ أنْ نلقيك في بئرِ الغابة، فلا يُشرّفنا أنْ يكونَ بيننا ثعلبٌ بلا ذَنَب.

ذُعِرَ الثعلبُ المسكين من هذا القرار، وبدأ يستعطفُ رفاقه، ويبرّر لهم ويصطنع لهم الحجج والأسباب.

إلا أنهم لم يعطوه فرصةً للعيش سوى يومٍ واحدٍ فقط. كان الثعلبُ في غايةِ الحزن والهلع، وبدا كأنَّ الخوفَ والندم سوفَ يقتلانهِ، لم يكن أمامَهُ سوى حلٍ وحيدٍ.

في الصّباح الباكر غَدا إلى الجدّةِ وجَثَمَ أمامها بكلّ خُنوعٍ وتذلّل، لكنّ الجدّةَ تجاهَلَتْهُ كأنّها لا تراه، واقتربَ الثعلبُ منها وقال:

- أيّتُها الجدّة إنّني أذنبت بحقك.

لكنّ الجدّةَ لم تجبه.

قالَ مجدَّدًا: جئتُ أعتذرُ منك.

نظرت الجدّةُ إليه بازدراءٍ ولم تتكلم.

قالَ الثعلبُ باكيًا:

- لقد أمهلوني يومًا واحدًا فقط لأستردَّ ذَنَبي، وإلا فسوف يقتلونني، أعيدي لي ذَنَبي وأنقذي حياتي أرجوكِ.

قالت الجدّةُ دون أن تنظر إليه:

- وما شأني في ذلك؟ إذا قتلوك فإنّما يقتلون ثعلبًا أبترَ ماكرًا مخادعًا.

انهالَ الثعلبُ على قدميها متوسلًا:

- حياتي بين يديك أيّتها الجدّةُ الطيبة، أنقذيني أرجوكِ.

قالت الجدةُ وهي تدير وجهها عنه: أَعِد لي سلّةَ البيضِ وسأسامحك بالباقي وأُعيدُ لك ذَنَبك.

فَغَرَ الثعلبَ فاهُ وقالَ مندهشًا: كيفَ أُعيد لكِ سلةَ البيض؟

قالت الجدّةُ: إيّاك أنْ تسرقها مِنْ أحد.

صاحَ الثعلبُ: تبتُ عن السرقة والخداع؟

قالت الجدّةُ بلا مبالاة: الوقتُ يمضي، أَعِد لي سلّة البيض لأعيدَ لكَ ذَنَبك.

بحثَ الثعلبُ عن الحفيدةِ كي تساعده، لكنّه لم يجدها، لقد انتهت زيارتها للجدّة، وغادرت بعد أنْ تركت للثعلب مفاجأةً لا تخطرُ ببالهِ أبدًا.

ركضَ الثعلبُ بأقصى سرعتهِ إلى الدجاج، وبدأ يشرحُ قصّته وهو يلهث:

- أريدُ سلّةَ بيضٍ وإلا فسوفَ أموت.

قالت الدجاجات:

- لكنك أكلت الكثير من صديقاتنا، وإذا متَّ يرتاح منك جميع الدجاج.

لاحَ للثعلبِ ما فعله بالدجاج وندم كثيرًا لأنه لم يحسبْ أيّ حسابٍ لهذا اليوم.

راحَ يشرحُ موقفَهُ وندمَهُ وتوبتَهُ عن أكلِ الدجاج؛ ولأنَّ الدجاج طيبٌ في طبيعته، فقد وافق على إنقاذ الثعلب بشرط:

- أَحضِرْ لنا كيسًا من القمح لنُعطيكَ سلةَ البيض.

صاحَ الثعلب مذعورًا: (كيس من القمح؟). إنّ الوقتَ يمضي بسرعة، ركضَ بأقصى سرعته إلى الفلاح الطيب وشرحُ له قصّته:

- أريد كيسًا من القمح وإلا فسوف أموت.

قال الفلاح الطيب:

- كنتُ أنتظر قدومَك لأعاقبَك على سرقة العنب من كرمي، لكنني سأعطيكَ كيسًا من القمح بعد أن تحلِبَ بقرتي المجنونة، وتجلِبَ لي الحليب.

مضى الثعلبُ إلى البقرة وشرحَ لها قصّتهُ (أريد حليبًا وإلا فسوف أموت).

قالت البقرة:

- أنت الذي أخفتني في المراعي، لكن لا بأس سأعطيكَ حليبًا بعد أن تجلب لي أوراق التّوت فإنني جائعة جدًا.

كانَ الوقتُ يمضي سريعًا والثعلب يفقد قوّتهُ وسُرعتهُ. أعمالُه السيئة مع الآخرين وضعَتْهُ اليومَ في موقفٍ مُحْرج، لكنّه يتعلم منهم أشياء أخرى.

وقف عند جذعِ شجرةِ التوت لاهثًا، وقال بصوت متقطّع:

- أريد أوراقكِ الخُضر وإلا فسوفَ أموت.

قالت الشجرةُ:

- أعطيكَ أوراقي بعد أن ترويني من الماءِ العذب.

أسرعَ الثعلبُ إلى بئرِ الغابة، لكنّه لا يعرفُ كيفَ يُخرجُ الماءَ من البئر، وقفَ حائرًا، والوقت يمضي سريعًا، وشعرَ كأنَّ كلَّ تَعَبهِ سوف يضيعُ سدًى.

وفجأةً جاءت فتاةٌ رشيقةٌ، وبيدها جرّةٌ تريدُ أنْ تملأها منْ ماء البئر.

قالَ لها الثعلب متوسلًا:

- أريدُ جرّةَ ماءٍ وإلا فسوف أموت. وبدأ يشرحُ لها قصّتَه بصوتٍ متقطعٍ مرتعش.

طلبَت الفتاةُ الظريفة منهُ أن يغنّي لها أغنيةً جميلةً حتى تعطيه جرةَ الماء.

جلسَ الثعلبُ ليأخذَ نفسًا عميقًا، إن الوقت يمضي، يحاول أن يتذكر أغنية ما، لكنه لم يكن يحفظ شيئًا.

صاحت الفتاة: ألن تغني؟

نظر الثعلب إلى البئر، وأطلق لسانه لأول مرة يحاول أن يغني بصوت عذب:

أيُّها البئرُ الكريم

أيُّها الخِلُّ الحَميم

أعطني من فضلكَ

جُدْ عليّ بمائِكَ

أسقي بهِ شجرة

كبيرةً ورّاقةً

أسدُّ به رمقها

كي آخذ أوراقها

تحتاجُها بقرةٌ

مجنونةٌ جائعةٌ

عطوفةٌ كريمةٌ

تعطيني من حليبها

أعطيه للفلاح

وأطلب السماح

ما أجملَ السماح

ما أجملَ السماح

وأعودُ للدّجاج

بسرعةِ الرّياح

معي كيسٌ من القمحِ

عدتُ بسرعةِ الرمحِ

لآخذَ سلةَ البيضِ

إلى الجدّةِ في البيتِ

منْ ساعدني أنتِ

منْ أنقذني أنتِ

ما أجملَ السماح

ما أجملَ السماح

عادَ الثعلب بسلَّةِ البيضِ إلى الجدّة، فتفاجأت كثيرًا، وطلبت منه أن يخبرها كيف حصلَ على سلةِ البيض.

حكى الثعلبُ للجدّة ما حدثَ ففرحت الجدّةُ وقالتْ له:

- لقد تركتْ لكَ حفيدتي مفاجأةً رائعةً.

وأسرعَتْ إلى الكوخِ، فأخرجتْ ذَنَبَ الثعلب مزينًا بشكل رائعٍ وبألوانٍ جميلةٍ مثلَ قوسِ قزح.

لمْ يصدّق الثعلبُ ما رآهُ، وكادَ يطيرُ مِنَ الفرحِ.

علَّقت الجدّةُ ذَنَبَ الثعلب في مكانه بعدَ أنْ عاهَدها ألا يكذبَ على أحدٍ، ولا يسرِقَ ولا يخون أبدًا.

ومضى الثعلبُ مسرعًا إلى الغابة مختالًا ليلقى أصدقاءه.

تجمّعت الثعالبُ من جديدٍ وقد تفاجؤوا عندما رأوا ذَنبَ الثعلب المزين، فراحوا يسألونه:

- مِنْ أينَ لكَ هذا الذنَبُ الجميلُ؟ مِنْ أينَ حصلتَ عليه؟

قال الثعلبُ:

- لقد حصلتُ عليهِ من الجدة، بعد أن علّمتني درسًا لا أنساه أبدًا.

دنت الثعالب أكثر وهي معجبةٌ بذَنب الثعلب الجميل، بينما صاح الثعلب بصوتٍ عالٍ:

- عدتُّ إليكم قبل أن تنقضي المدة.

قال كبيرُ الثعالب: إذًا، أخبرنا ما هو الدرس الذي تعلمته من الجدّة.

وبدأ الثعلب يحكي لهم قصته قائلًا:

لقد علّمتني ألا أخون الأمانة أبدًا

البلبلُ الحيرانُ

أرادَ بلبـلٌ إن يغيّـر أنغامـه، لـم يقـل لـه أحـدٌ أن أنغامـه عذبـةٌ تـبهج السـامعين، ولـم يصـارحه أيُّ طـائرٍ بأنـه يتمنى لـو يملـك مثـل صـوته الشـجي العذب، ولم يدرك هو تلك النعمة التي يمتلكها، فمضى إلى الحمامةِ وقال لها:

- أيتها الحمامةُ الزرقاءُ ألا تعطيني هديلك؟

أجابت الحمامة متعجبةً:

- لكنَّ أنغامكَ عذبةٌ أيها البلبل، إنها أرقُّ من هديلي.

قال البلبلُ:

- لقد مللتُ التغريد، وأكاد أكرههُ.

صاحت الحمامة:

- لا يكادُ جمالُ غابتنا يكتمل إلا بأنغامك العذبة.

أجابها البلبل:

- إنْ كنتِ ترينَ أنغامي جزءًا من جمال الطبيعة، فهي أيضاً جزءٌ من طائرٍ ضامر الخلقة لا تكاد تلحظه الأبصار.

وعبثاً حاولت الحمامة أن تُقنع البلبلَ بأنغامه، فنزلت عند رغبته ومنحتهُ هَديلها.

رَفرَفَ البلبلُ من غصنٍ إلى غصن، وهو يجرِّب هديلَ الحمامةِ الزرقاء، يظن نفسَهُ في ميلادٍ جديد.

استمرَّ البلبلُ يجرب الهديل مزهوًا، وهو يتنقل من غصن إلى آخر حتى اجتمعت العصافير والشحاريرُ والحمائم والعنادل والسنونو والكروان؛ لتراقب كيف يمكن أنْ تتحوَّلَ أنغامُ بلبلٍ إلى هديلِ حمامة.

صاحت البومةُ العجوز:

- أيُّها البلبل إنَّ هديلَ الحمامةِ لا يناسِبُكَ، فإنْ كنتَ تركتَ النَّغم الموسيقيَّ الذي وَهَبَهُ الخالقُ لك، فما عليك إلاّ أنْ تُكمل الشَّواذَّ الذي بدأته.

قال البلبل متأثراً:

- أعجبني هديلُ الحمامة، فالحمامة أكبر حجمًا ويراها الجميع، ويحبها الجميع.

صاحت البومةُ غاضبةً:

- إذًا اذهب وقلِّد الغُراب، فنعيقهُ قد يناسبك وحجم الغراب أكبر من حجم الحمامة.

أَجهَدَ البلبل نفسَه كثيراً في تقليد الغراب، لكنَّه أدرك أنَّ النعيقَ صعبٌ على حنجرته الرقيقة، فعادَ إلى البومة وقال لها:

- أيتها البومةُ الرائعة، إنَّ النَّعيقَ الغليظ لا يناسبُ قَدِّيَ الرَّشيق.

قالت البومة:

- إذًا عليك بالصَّرير.

مَضى البلبلُ إلى صرَّار الليل واستعارَ صوته، لكنَّ صرَّار الليل قال له محذراً:

- إنَّ الناس هنا يبحثون عني في كلِّ مكان، لأنِّي أُصِرُّ طوال الليل فلا يهنأون بنومهم.

لم يُدرك البلبل خُطورة الأمر، وأعجَبَه الصَّرير، فراحَ يزهو بصوته الجديد بين الطيور.

وكادت بلابلُ أخرى تفعل مثلَه، لكنَّ شيئاً حَالَ دون ذلك، فقد راقب الناسُ مصدر الصَّرير، وعرفوا أنَّ بلبلاً مجنوناً بدَّل الصَّرير بأنغامه العذبة. فراحوا يطاردونه في كل مكان، حتى لجأ البلبل إلى عش البومة فاختبأ فيه وكفّ عن الصرير.

في صباح اليوم التالي قالت البومة الحكيمة:

- أيّها البلبلُ الحزين، أريد أن أعرف سبب قدومك إلى عشي، لماذا لم تلجأ إلى رفاقك البلابل؟

أجاب البلبل بصوت هادئ ملؤه الأسى:

- لا يريدون رؤيتي، بل لا يعتبرونني بلبلًا مثلهم.

همهمت البومة ثم قالت:

- لِذا عليك أن تعود إلى أنغامك وتصلح ما أفسدته.

أجاب البلبل:

- لا أريد أن أعود إلى التغريد، قلت لكِ إني مللت التغريد وبتُّ أكرهه.
- حسنًا، اختبئ هنا في هذا العش، إذا كنت ترى أن التغريد لا يليق بك.

وما كادت البومة تكمل كلامها حتى هبطت الحمامة الزرقاء وهي تصيح:

- أيتها البومة، أيتها البومة، هناك أمرٌ عاجل.

اقتربت البومة منها وطلبت منها التكلم.

- أيتها البومة، جاءت سيدةٌ ومعها طفلٌ صغير، تقول إنّ طفلها يعاني مرضًا أعجز الأطباء، ولا دواء له سوى سماع أنغام عذبة في جو يسوده الهدوء.

قالت البومة متحمسةً:

- حسنًا، لا بد أن نساعد الطفل. وأنتِ أيتها الحمامة الطيبة يمكن أن تساعدي الطفل فهديلك جميلٌ عذب.

قالت الحمامة:

- صحيح إن هديلي جميل، لكن الجميع يتفق على أن شدو البلبل أعذب.

التفتت البومة إلى البلبل وقالت:

- ألن تساعد الطفلَ أيّها البلبل، إنه مريضٌ ويحتاج سماع أنغامك العذبة.

وسرعان ما اجتمعت الطيور على أغصان شجرة كبيرة. كانت الأم مع طفلها يجلسون في ظلها، وطلبت البومةُ من الجميع التزام الهدوء، بينما تقدّم البلبلُ ليكون على مقربةٍ من الطفل، وبدأ يشدو ويشدو، في جوٍّ يسوده الهدوء.

شعر البلبل أنه يشدو للمرة الأولى في حياته، كانت أنغامه تخرج كأنها أعذب سيمفونية عرفها تاريخ الطيور، كانت الأعناق تتمايل وتتماوج وتعلو وتنخفض، بينما كانت عيون الطفل تعلو وتراقب البلبل الجميل.

استمرّ البلبلُ يشدو حتى وجدَ الطفلَ ينهضُ ويتراقص أمام أمه، وبدأ يضحك، فامتزجت ضحكاته مع أنغام البلبل، فما عرفت الطيور أيّهما أعذب، أنغامُ البلبل أم ضحكاتُ الطفل.

شكرت الأم البلبلَ وهي تحضن طفلها، وطلبت أن تعود مرارًا حتى يشفى طفلها تمامًا، ولبّى البلبل طلبها، ووعدها أنه سيشدو لطفلها حتى يشفى.

صفّق الجميع للبلبل وانحنَوا له إجلالًا، بينما اقتربت منه البومة وهمست في أذنه:

دائمًا هناك أسرارٌ أودعها الخالق في كل شيء نملكه.

***

تحت ظلال البلشون[1]

صاحت العصفورة الدوريّة مذعورةً:

- النجدة! لقد تهدّم عشي، لقد اختفت فراخي.

هرعت إليها بومةٌ عجوزٌ، وراقبت آثار الدمار الذي طالَ عشّ العصفور. حاولت أن تفهم شيئًا، وهي تتبع أثر القش وقشور البيض. ثم اقتربت من العصفورة وقالت متأثرةً:

- أيتها الدُوريّة، هوني عليكِ ولا تجزعي سأخبركِ بما حدث.

كانت العُصفورة الدورية جميلةً تجذب أنظار الجميع برشاقتها، مقدامةً تنال إعجاب الجميع بتفانيها وجدها وعملها الدؤوب، كانت تعيشُ بأمانٍ وسلامٍ في عشٍّ صغيرٍ بَنَتْهُ فوق غصنِ زيتونةٍ ضخمة، وكانت لها فراخٌ صغيرةٌ تملأ العشَّ بهجةً ورِقّة. وكانت فراخُها هي غاية عيشها. وكان عشّها هو أجمل مكان تراهُ على الأرض.

[1] **البلشون**: مجموعة من الطيور التي تتبع اللقلقيات، تتميز بأجسام رشيقة، وأعناق دقيقة ٬طويلة، ورؤوس صغيرة لها منقار قوي مدبب وريش طويل على ظهورها. ومالك الحزين أحد أنواعها.

لقد انطلقت اليوم منذ إشراقة الشمس كعادتِها؛ تبحث عن الطعام، فتنقلت من شجرةٍ إلى شجرة، ومن حقلٍ إلى آخرَ، حتى مَلأت بطنها الصغير من ديدانِ الأرض وحَبّها، وجمعت لِصغارها ما يَسُدُّ رَمَقَهم، وعادت مسرعةً إلى موطنها.

حَطَّت العصفورةُ على شجرة الصنوبر الضخمة، جَالت بنظرها بين الأغصان المتشابكة، تسَلّلت بين الأوراق الإبرية، كأنّها تبحث عن شيء. لكنها عادت ترفرف في الجوِّ وهي تصيحُ بذعر:

- النجدة! لقد تهدّم عشي، لقد اختفت فراخي.

قالت البومة متأثرةً:

- أيتها العصفورة، يبدو من أثر الدمار أن صقرًا كبيرًا حطّ على هذا الغصن وأكل فراخكِ وخرّب عشكِ.

أمضت العصفورةُ أيامًا ولياليَ حزينةً على عُشها وفراخها، لكنها قرَّرت ألا تستسلم للبكاء، فهو لن يجدي نفعاً. كذلك نصحتها البومة العجوز قائلةً:

- لن تستطيعي العيش في الغابة إذا استسلمتِ.

قالت العصفورة الحزينة:

- ماذا يمكنني أن أفعل وقد تهدّم عشي واختفت فراخي؟

أجابتها البومة:

- إنَّ الحياة لم تنتهِ، وعليكِ المحاولة من جديد.

وبدأت العصفورةُ تعملُ بِجدٍ ونشاط، لتبنيَ عُشها مُجَدداً.

وراحت تجمعُ القشَّ وتُكوّمه على غصنِ شجرةٍ أخرى، وتجمعُ بينهُ كما يجمعُ أمهرُ البنَّائين بين الحجارة ليبني قصراً بديعاً.

ولم تمضِ إلا أيامٌ قلائل حتى ملأت عُشَّها الجديد بالبيوض الصغيرة، وراحت تلمْلِم القَشَّ كي تغطي به بيوضها.

ولأن الجو حارٌ، فستفقس بيوضها سريعًا، وستفرح بفراخها الجديدة، ما عليها الآن إلا أن تفكر في حمايتهم من كل عدو محتمل. لذلك فقد توجهت إلى البومة وقالت لها:

- أيتها البومة، أنا أنتظر أن تفقس البيوض عن فراخي الجديدة، لكني أخشى أن أذوق من نفس الكأس.

اقتربت منها البومة وهمست في أذنها:

- راقبي عشّك على الدوام، ولا تبتعدي كثيرًا عن فراخك.

هُرعت العصفورة سريعًا إلى عشّها، وما أن اقتربت منه حتى رأت طائراً ضخماً يحطُّ على الشجرة؛ ويحَطِّم عشّها ويكسرُ بيوضها.

حلّقت العصفورة المسكينة وهي تصيح بذعر:

- النجدة! النجدة!

كانت الطيور تراقب من بعيد ولا تدري ماذا تفعل. لم يكن هناك من يود مشاركة العصفورة في همّها، كلٌ طائرٍ كان يخشى على عشّه، لذا فقد حلّقت العصفورةُ طويلًا، وصاحت كثيرًا دون أن يدنو منها أحد. فوقعت على عشّ البومة وراحت تبكي أمامها.

نصحتها البومة ألا تبني عشّها على الأغصان العالية.

فكرت العصفورة بالأمر، ثم قالت للبومة:

- إنك على حق، سوف أبني عشي عند جذع شجرة السرو الكبيرة.

تركت العصفورة أغصان الصنوبر، وراحت تبني عشها عند جذع شجرة السرو الضخمة. لن تستطيع العقبان والصقور رؤية عشها، ستكون بأمان تحت أغصان السرو الكثيفة، وفي ظلالها.

قالت للبومة وهي تحسّ بمزيد من الأمان:

- لقد بنيت عشي في مكان آمن، وملأته بالبيوض التي ستفقس قريبًا أيتها البومة.

أجابتها البومة:

- أنا سعيدةٌ لأنكِ لا تيأسين، ودائمًا تحاولين من جديد.

لكن العصفورة المسكينة ما إن عادت إلى عشها حتى وجدت الثعابين قد التفت حول عشها وهي تلتهم بيوضها وتبعثر عشها.

حاولت العصفورة مرارًا وتكرارًا أن تنجح في بناء عشٍ آمن، تسلَّلت بين أكداسِ الصخور، وبين جذوع الأشجار، وفي الكهوف وعلى قمم الجبال. لكنها كانت دائمًا تواجه عدوًا أقوى منها.

رفرفت حائرةً، وكادت تستسلم لليأس.

مضت إلى البومة الحكيمة، وراحت تبكي بين يديها.

قالت لها البومة بحزم:

- لا تيأسي أيتها العصفورة، عليك المحاولة من جديد.

زارت العصفورة صديقتها الحمامةَ الزرقاءَ، ومرَّت على البلبلة الذهبية، وحطَّت عند الشحارير، تحكي لهم قصتها وتستشيرهم في أمرها، لكن دون جدوى.

ثم تذكرت الهدهد الذكي، فتوجهت إليه في الحال، وعندما حطّت عنده وجدت عددًا من عصافير الدوري التي تشبهها، كانت العصافير تشكو للهدهد ذات الأمر مع كثيرٍ من الدموع.

كانت إحدى العصافير تقول للهدهد:

- كاد صقرٌ غاضب يفترسني بعد أن التهم جميع فراخي.

صاحت عصفورة أخرى:

- وأنا أيضًا نجوت بأعجوبة من باشقٍ له براثن طويلة.

قال الهدهد متأسفًا:

- لا أدري كيف يمكن مواجهة هذه الطيور الشرسة، لكني سأفعل ما بوسعي لمساعدتكم أيتها العصافير الجميلة.

بزغ في قلوب العصافير وميضُ أملٍ فاقتربت أكثر من الهدهد، بينما رفع الهدهد رأسه وحرك عرفه وهو يقول:

- لا بد أن هناك عصافير أخرى تعاني نفس الأمر.

أجابت العصافير بصوتٍ واحدٍ:

- نعم، لا بد أن العصافير جميعها تعاني شرّ هذه الطيور.

فكّرَ الهدهدُ قليلًا، ثم قال:

- هيا بنا نمضي إلى مالك الحزين ونستشيره في الأمر.

انطلقت العصافير برفقة الهدهد إلى مالك الحزين الذي كان يتجول قرب البحيرة.

كان الهدهد متأكدًا أن مالك الحزين لديه الحل، لذلك فقد راح يقصّ مشكلة العصافير وكأنها مشكلته الشخصية، ومالك الحزين يستمع بهدوء ويهز رأسه بمنقاره الطويل، ويرنو إلى العصافير الحزينة.

ولما انتهى الهدهد من كلامه التفت مالك الحزين إلى البحيرة ونادى مجموعة من طيور البلشون سوداء اللون، وسرعان ما تجمعت والتفّت حول بعضها البعض. حينذاك طلب مالك الحزين من الجميع التوجه إلى الشجرة الأم.

حلقت طيور البلشون في سرب واحد تتبعها العصافير برفقة الهدهد، حتى حطّت جميعها على شجرةٍ ضخمةٍ لا تبعد كثيرًا عن البحيرة.

قال مالك الحزين للعصافير:

- الآن أنظروا إلى الأعشاش الموجودة على أغصان هذه الشجرة.

تلفتت العصافير حولها لتجد الكثير من الأعشاش الكبيرة المتجاورة دون أن تفهم قصدَ مالك الحزين.

رفع مالك الحزين رأسه مخاطبًا الجميع:

- إننا جميعًا نعيش هنا على هذه الشجرة كأسرةٍ واحدة، نحن طيور البلشون، أعشاشنا متجاورة، نحمي بعضنا البعض، ونتكاتف مع بعضنا البعض، نمضي في الصباح الباكر إلى البحيرة لصيد الضفادع، نتقاسم ما نصطاده فيما بيننا. وحينما تجفُّ المياه نُطأطئ رؤوسنا

وننتظر المطر، دون أن نفكر بمغادرة أعشاشنا. نبتعد أميالًا عن عشنا، لكننا نعود في النهاية.

قالت العصفورة الدورية متأثرةً:

- لقد حطّموا عشّي مرارًا، وأنا أبحث عن طريقة لبناء عشٍ آمن. مثلي مثل جميع هذه العصافير. وأشارت العصفورة إلى رفيقاتها.

أكمل مالك الحزين قائلًا:

- نحن البلشون الأسود لا نتحرك إلا في سرب، نمضي معًا للصيد ونعود معًا، وكما ترون، نبني أعشاشنا على شجرة واحدة.

اقترب الهدهد من العصفورة الدورية وهو يهزُّ عرفه المميز، وقال لها:

- أيتها الدورية، لقد أرشدَكم مالك الحزين إلى الحل.

التفتت العصفورة الدوريّة إلى رفيقاتها وقالت:

- اسمعوني جيدًا، لا خيارَ أمامنا سوى التكاتف، سوف نُخبر جميع العصافير أن تجتمع في شجرة واحدة، لنبني أعشاشنا تحت ظلال أعشاش البلشون.

ونعيش مثلها تمامًا.

شتاءُ القلوب الدافئة

قالتْ فاطمةُ الجميلة لأمِّها العجوز:

- يجبُ أنْ نجمعَ الحَطَبَ يا أمي، أنا لا أقوى على بردَ الشتاء.

ظلَّت الأمُّ صامتةً، نظرتْ من النّافذة إلى الخارج، كانَ الناس حقًا ينطلقون إلى الجبل ليجمعوا الحطبَ للشتاء القارس.

قالتْ فاطمةُ مِنْ جديد:

- في العام الماضي لمْ نجمعْ كفايتنا من الحطب، فعانينا من البرد كثيرًا.

قالت الأم وهي لاتزال تنظرُ عبرَ النّافذة:

- ومَنْ قالَ لكِ يا بنيّتي إنّني سأعيشُ حتى الشتاء؟ ألا ترينَ إلى حالي؟ إنَّ المرض يشتدُّ عليَّ يومًا بعد يوم.

قالت فاطمة:

- أتمنى لك دوامَ العافية يا أمي، وأنا ماذا سيحصل لي؟

قالت العجوز:

- أنـتِ يـا بنيّتي لا شـكَّ أنّـه سـيتقدَّم أحـدُ شـباب القريـة لخطبتـك، ويتزوّجك قبل الشتاء، لذا فلا حاجةَ لنا إلى جمع الحطب.

ضحكت فاطمة وقالت:

- وإذا لم يحصل شيءٌ مِنْ ذلك يا أمي؟

أجابت الأم، وقد بدا عليها الغضب:

- تفاءَلي بالخير، ولا تكوني متشائمة.

ردّت فاطمة:

- أجل يا أمي، لكن لابد أنْ نخطط ونحسبَ لكلّ طارئ.

قطعت الأم حوارها مع ابنتها بحزمٍ وهي تقول:

- دعيني أرتاح قليلًا، ولا تكثري عليّ الهموم.
- كما تشائين يا أمّاه.

لكنَّ فاطمة قرّرت أنْ تقوم بخطةٍ جميلة؛ لأنّها قالت في نفسها: (لا أحد يعلم ماذا سيحدثُ في المستقبل، لكن يمكن أن نخطط له)، إنّها تحب أمّها كثيرًا، وتتمنى أن تتمتع مثلها بهذا القدر من التفاؤل، لكنّ عليها القيام بأمرٍ ما.

وبدأت تخرج في كلِّ صباحٍ لتُنفِّذَ خطتها.

لقد كانت تتوجَّه مع رفيقاتها إلى الجبل لتجمع الحطبَ مثلَهُنَّ. وخبأت هذا السرّ عن أمها كي تفاجئها حين يشتد البرد.

كوّمت فاطمة ما جمعته من الحطب في زاوية الدار بعيدًا عن أنظار أمها. وفي أحدِ الأيام ابتعدت فاطمةُ مع رفيقاتها كثيرًا بحثًا عن الحطب حتى اقتربن من البلدة المجاورة، وبينما كنّ تبحثن عن الحطب مرَّ بالقرب منهن شابٌ طويل يقودُ قطيعًا من الغنم الأبيض.

قال الشاب:

- سوف أدُلكنَّ على مكانٍ قريبٍ فيه كثير من الحطب الجيّد.

قالت فاطمة:

- شكرًا لك أيَّها الشاب الطيب لأنك تحبُّ مساعدة الآخرين.

ومرَّت الأيام بسرعة كعادتها، وبدأت اللقالق تتجمع في السماء وتودّع النّاس بعروضٍ جميلة. وحملت الرياحُ معها لسعات البرد، واشتَمَّ الناسُ مِنَ الغيوم الصاعدة في الأفق الغربي رائحةَ المطر.

قالت فاطمة لأمّها:

- أرأيتِ يا أماه، ها هو الشتاء يطرق أبوابنا، ولم يحصل شيءٌ مما قلتِ.

قالت العجوز وهي تقاوم شعورَ البرد:

- ستكون كارثةٌ يا بنيّتي إذا لم يحصل ما توقّعناه.
- كنتُ أدركُ هذا يا أمي.

طأطأت الأم وقالت بحزن:

- بل سيحصل أحدُ الأمرَين، سوف أموتُ من البرد.

قالت فاطمة:

- أطال الله عمرك يا أمي.

قالت الأم وكأنها اكتشفت حلًا للمشكلة:

- سنطوف على جيراننا ونطلب منهم المساعدة، وإذا منَحَنَا كلُّ جارٍ قليلًا من الحطب سيتكوّم لدينا ما يسدُّ حاجتنا.
- لكن يا أمي، جيراننا تعبوا كثيرًا في جمع الحطب.

قالت الأم مستاءةً:

- ماذا نفعل إذًا؟ أنموت من البرد؟

ابتسمت فاطمة وقالت:

- لا يا أمي، عليك أنْ تثقي بصغيرتك، فالأبناء أيضًا يحسّون بالمسؤولية.

فَغَرَت الأمُّ فاها وقالت بدهشة:

- ماذا تخبئين يا فاطمة؟
- هناك مفاجأة سارَّة لك يا أماه.

خرجت فاطمة لتحضر الحطبَ المخبَّأ، وهي تمتلئ سعادة وحيوية، إذ إنها ستنقذ أمها من ورطة كبيرة. لكنّها حين اقتربت من الركن الذي خبأت فيه الحطب تفاجأت أنَّ كلّ الحطب المخزون قد سُرق، ولم يترك اللصوص سوى عيدانٍ رفيعة لا تنفع في شيء.

دخلت فاطمة إلى الكوخ وهي تبكي.

قالت الأم:

- ماذا أصابكِ يا فاطمة؟ أين المفاجأة؟

قالت فاطمة وهي تبكي:

- لقد سُرق كلُّ الحطب الذي جمعتُه.

قالت الأم في دهشة:

- حقًا إنها مفاجأة، ومتى جمعتِ الحطب؟

حكَت فاطمة لأمها كيف كانت تخرج مع رفيقاتها إلى جمع الحطب، وراحت أمُّها تلومها وهي ترتعش من البرد الشديد، ثم رمت بنفسها في حضن أمها وهي تبكي وتقول:

- لا أحد يعلم ماذا سيحدث في المستقبل.

وحلَّ الشتاء مثقلًا بالمطر والثلج والبرد القارس. وفرح الناسُ بما جمعوا من الحطب، وراحوا يوقدون النار ويجلسون حولها، وفرح الأطفال بدفء النار وهم يستمتعون بالحكايات الجميلة، ويعجبون بالمثل الذي يسمعونه كل ليلة (النار فاكهة الشتاء).

كانت فاطمة تسعى لجمع حطب مِنْ هنا وهناك كي تحمي أمّها العجوز من قسوة الشتاء، لكن اليأس بدأ يتسلل إلى قلبها. لا بد أن تفعل شيئًا.

وذات صباح خرجت فاطمة برغم البرد القارس وتوجّهت إلى الجبل، وتذكرت ذلك المكان الذي دلّ عليه ذلك الشاب الطيّب وراحت تجمع بقايا الحطب. نعم لم يكن هناك كمية كافية، لذلك قررت العودة يائسةً.

عندما بدأت تغادر المكان شعرت أن هناك من يراقبها ويلاحقها. لذلك فقد أسرعت خطواتها نحو القرية.

قالت لأمها وهي تضع الحطب أمامها:

- لن أعود إلى الجبل وحدي يا أمي، خفت كثيرًا، شعرت أن هناك من يلاحقني.

ضمتها العجوز وهي تحاول أن تدفئها:

- لا تعودي البتة، ألا ترين إلى جسمك المتجمد.

أجابتها فاطمة مرتعشةً:

- لم أعبأ بالبرد يا أمي، لكني ارتعبت لدى سماع صوت خلفي، وشعرت أن أحدًا ما يلاحقني.

قالت أمها وقد توسعت عيناها:

- حذارِ يا فاطمة أن تذهبي إلى هناك ثانيةً.

كانت كمية الحطب كافية ليوم أو يومين على الأكثر، لذلك فقد كانت فاطمة مترددة كثيرًا، هل تتجرأ وتعود لجمع الحطب؟ ستذهب إلى الجبل وحدها، فرفيقاتها لسن بحاجة لذلك. أم تستسلم لخوفها، وتقعد إلى جانب أمها التي بدأت تسعل.

نامت فاطمة في حضن أمها وهي لم تتخذ قرارها، وبدأت تحلم بكلام أمها المتفائلة.

وفي الصباح استيقظت على طرقات الباب، نهضت من الفراش لترى من الطارق، بينما كانت أمها تسعل بشدة.

وسرعان ما فتحت فاطمة الباب لتجد أمامها مفاجأة لم تخطر ببالها على الإطلاق.

صاحت العجوز وهي تنظر إلى الضيف:

- منْ أنت أيها الشاب؟

قالت فاطمة:

- إنه شابٌ طيب من البلدة المجاورة، دلّنا على مكان الحطب حين كنا نخرج لجمعه.

كان الشاب الطيب يحمل كيسًا كبيرًا من الحطب، وضعه عند الباب، وهو يقول:

- لقد وجدتك البارحة تجمعين الحطب، ولم تظفري بشيءٍ ذي بال، راقبتكِ من بعيد، علمت أنكِ بحاجة للمزيد، ولم يعد في الجبل ما يكفي. فأحضرتُ لكِ كيسًا كبيرًا، سيكفيكما لعدة أيام، لا تيأسي سوف أجلب لكم ما تحتاجونه طوال فصل الشتاء.

انفرجت أساريرُ فاطمة، وراحت تشكر الشاب اللطيف، وتثني عليه حبّه للخير.

لكنّ الشاب كان يخطط لأمر آخر.

لقد عاد بعد أسبوع وفي يده كيس آخر، لكنه كان برفقة أمه.

قالت أمه:

- إنّ ولدي كان يبحث دائمًا عن فتاة تتحمل المسؤولية، وتعرف كيف تتصرف في أحلك الظروف.

قالت فاطمة:

- لكني لن أترك أمي وحيدة.

قال الشاب مبتسمًا:

- إذًا بإمكانها أن ترافقكِ وتعيش معنا، فلدينا الكثير من الحطب.

قالت العجوز:

- ومن يدري يا بنيّ، فقد أموت قبل أنْ أصل إلى البلدة المجاورة.

قالت فاطمة وهي تبتسم: لا أحد يعلم.....

قاطعتها العجوز: ماذا سيحدث في المستقبل؟

ضحكت فاطمة، وأمسكت بيد أمها وقالت:

- سأظل أحسب حسابًا لكل طارئ، وأخطط للأمور ولا أنتظر المفاجآت.

***

السباقُ الذي غيّر وجه العيد

في صبيحة العيد استيقظ حازمٌ مكتئبًا غير كلِّ أطفال الحي؛ لأنَّ أباهُ لم يشترِ له سوى جزمةٍ زرقاءَ طويلة الساق تشبه جزمتَه التي تركها في فنَاءِ الدّار يوم هرب الجميع من موتٍ محتم. لقد ألحَّ على أبيه أنْ يشتري له قميصًا وسروالًا، لكنَّ أباه لم يكن يملك نقودًا كافية.

كان جميع أطفال الحي قد خرجَوا يبحثون عن المرح، ويسابقون العصافيرَ في التغريد، ويتشوقون إلى الأراجيح التي تحلّق بهم في الجو كطيورٍ جميلةٍ تعلّمت لتّوها فن الطيران، ويتباهون بملابسهم الجديدة يتباهون بها. ويطوفون على البيوت يلتقطون منها حلوى العيد قبلَ أنْ تنفد، فالعيدُ أجملُ شيء ينتظره الأطفال، يخبئون نقودهم ليشتروا بها ما يحلو لهم هذا اليوم. ولا شيء يقف في وجه إصرارهم على الفرحة.

شعرَ حازمٌ بالخجل وهو يذهب إلى ساحةِ الحي ليلقى أصدقاءَه الذين تجمَّعوا في السّاحة مبتهجين بعودةِ العيد، ويتزاحمون على الأراجيح والألعاب الأخرى.

كانَ في يد كل طفلٍ قطعةُ حلوى يتلذّذ بها، وهو ينتظر دوره في اللّعبة. جالَ حازمٌ بنظره بين أصدقائه الذين يلبسون ثياب العيد، كم هو جميلٌ

قميصُ سامر! أحمد أيضًا يلبس بنطالًا وقميصًا جميلين، راما تبدو حريصة على فستانها المزركش. جان ومراد وبِنار يحملون ألعابًا رائعة.

شعر حازمٌ أنه غريبٌ بين أصدقائه، ولا يستطيع أنْ يشاركهم فرحةَ العيد؛ لذلك قرّر أن يعود إلى البيت بعد أنْ تبلّلت عيونُه ببعض الدموع.

دسَّ يدَهُ في جيبه باحثًا عن شيءٍ ما، كان خالُه يدسُّ في جيبه نقودًا تكفيه ثلاثة أيام، لا أثرَ اليوم لنقودِ خاله، ولا حتى لخاله. لاحت له بسمةُ صديقه عامر يناديه من بعيد:

- هيا يا حازم سنلعب كرة القدم مع فريق الحارة المجاورة.

لو كان عامرٌ هنا لكانا سيكتفيان بلعب الكرة ولا حاجة لهما للنقود، ولا لمشاركة الأولاد الذين لديهم نقود.

أخرج حازمٌ يدهُ مِنْ جيبه، وهو يهمُّ بالركض نحو بيته. لكنه سمع في تلك الأثناء صراخًا:

- لا تدعوا حازمًا يهرب.

التفتَ إلى الوراء ليجدَ الجميع يركض نحوه وهم يصيحون:

- توقفْ يا حازم.

تجمّدَ حازمٌ في مكانه وشعَر بالخوف والحاجة إلى الهرب، سيسألونه أين الثياب الجديدة، سيسألونه كم لديه من النقود ليشتري بها الألعاب، وأيّ نوع من الحلوى اشتراها له أبوه.

سيهرب في هذه اللحظة قبل أن يصلوا إليه.

كانت راما تصيح من خلفه:

- تعالَ يا حازم، لا تذهب.

مراد يدندن بالتركية (كنا جميعًا بانتظارك)

التفت إليهم حازم بخجلٍ شديد، إنّهم ينتظرونه ليروا ملابسَه الجديدة وألعابه، ويسمعوا منه عن أصناف الحلوى التي اشتراها أبوه.

اقترب منه سامر وهو يقول:

- أهلًا بك يا صديقنا حازم، كل عام وأنت بخير.

ردّد الآخرون بصوتٍ واحد (كل عامٍ وأنت بخير يا حازم).

ردّ عليهم بصوت مرتعش: وأنتم بخير يا أصدقائي.

دسّ يده من جديد إلى أعماق جيبه بينما كان جان يهتز كأنه يرقص من شدة الحماس، ويصيح بصوته الحاد:

- إننا ننتظركَ لنبدأ اللعبة. هيا لقد تأخرنا.

قالت راما أيضًا: إنّها لعبةٌ جميلةٌ ومفعمةٌ بالحماس، كم أتمنى الفوز.

ردّ حازم: ماذا سنلعب؟

وقف أحمد أمامه وبدأ بشرح قواعد اللعبة متحمسًا:

- اللعبة هي سباق الجري للوصول إلى حقيبة الهدايا.

صاحَ حازم بدهشة: حقيبة هدايا!

- نعم لقد ملأنا هذه الحقيبةً بالهدايا الجميلة.

قالت بِنار: يوجد في الحقيبة قميصٌ أحمر له أزرارٌ ذهبية رائعة.

أضاف أحمد: وسروالٌ أسود جميل.

وأكمل جان: وقطارٌ صغيرٌ يسير وحده ويصدر صوتًا عاليًا.

وبعد فترة صمت قصيرة استدركت راما قائلةً: وهناك بعض النقود في الحقيبة.

صاح أحمد:

- سوف نعلّق الحقيبة على تلك الشجرة ونتسابق جريًا من عند بيت مراد باتجاه الحقيبة.

قالت بِنار: والفائز هو من يصلُ إلى الحقيبة أولًا.

صاح جان: هيّا أيُّها الأصدقاء فلْنَبدأ اللعب.

تردّدَ حازمٌ قليلًا، ثم قال:

- أنا لا أستطيع اللعبَ معكم لأنّي لم أضع شيئًا في الحقيبة.

قالت راما:

- لا داعي لذلك فقد امتلأت الحقيبة. فهناك من وضع فيها نقودًا وسروالًا، وقميصًا وقطارًا. وذلك يكفي يا حازم، لا داعي لشيء آخر.

صاح جان الذي امتلأ حماسًا: هيا لا تضيعوا الوقت.

قالت بِنار: أنا سوف أفوز بالتأكيد.

تدخل أحمد على الفور: بل أنا سأفوز، أنا أنطلق كالبرق، وسترون.

تذكر حازمٌ القطار الأحمر الصغير الذي رآه في مخزن الألعاب، وحلم في مساءِ ذلك اليوم أنه يسافر بالقطار السريع إلى بلادٍ أخرى. وفي صباح اليوم التالي هرب مع عائلته نحو الشمال، كانت القذائف تلاحقهم. كم تمنى وقتها لو يملك قطارًا سريعًا. كان ذلك اليوم آخر يوم التقى فيه بصديقه عامر، وبخاله، وبكل أصدقائه هناك. ترك في ذلك اليوم ثيابه الجميلة، لم يكن لديه

متسع من الوقت كي يجمع أغراضه، حتى بطاقة التقدير التي حصل عليها من المدرسة لتميزه، لم يستطع أن يجلبها معه.

صاح مراد: أريد أن أبدأ في الحال كي تروا كيف أنطلق كالسهم.

مدّ أحمد يديه جانبًا حتى يتأكد من تساوي الجميع عند نقطة البدء، ثم صاح فيهم:

- هيا استعدوا سوف نبدأ السباق.

استعدَّ الجميع للانطلاق، آخذين كمية كبيرة من الهواء إلى صدورهم، وتحمَّس حازم للسباق.

صاحَ أحمد بصوت قوي: هيّا.....

انطلقَ الأصدقاءُ يسابقون الريح، وانطلقَ حازم كالسهم، وراحَ يركضُ بكلِّ ما أوتيَ من قوة، يريدُ أنْ يصلَ إلى الحقيبة قبل الجميع لتتحقق كلّ أمنياته، كان يركضُ في شوارع مدينته بسرعة، وفاز أكثر من مرة على رفاقه بسباق الجري الذي كانوا ينظمونه عشوائيًا فيما بينهم، تذكر أنّه لمْ يفُزْ في آخر سباق حيث تعثر ببقايا قذيفة ووقع أرضًا. فاز يومها صديقه عامر.

ركض بكل قوته، كما كان يركض في ذلك اليوم الذي هرب فيه من القذائف.

قال جان وهو ينظر إلى حازم:

- أنا سأفوز بالحقيبة.

قالت راما: بل أنا سأربح الهدايا.

قالت بِنار: بل أنا.

كانت الشجرة تقترب من حازم، والحقيبة مع الحلم تكبر شيئًا فشيئًا، وفي لحظة صار ينطلق كالسهم ويجتاز جان بمقدار خطوة.

استمرَّ بذات العزم يركض كالبرق نحو الشجرة. حلمُهُ قريبٌ جدًا.

يكادُ يصطدم بالشجرة، حقيبة الهدايا في متناول يده.

صاح الجميع بسرور:

- لقد ربحَ حازم... لقد ربحَ حازم.

صفَّق الجميع لصديقهم الفائز.

صاح سامر:

- إنك تستحق كل الهدايا التي في الحقيبة.

قالت راما:

- هيا اذهب إلى البيت والبس هذه الثياب التي فزت بها، وعُد إلينا لنكمل اللعب.

قالت بِنار:

- علينا أيضًا أنْ نشتري الحلوى، هيّا يا حازم نحن بانتظارك.

عادَ حازمٌ بالهدايا إلى البيت مسرورًا، فهو سيلبسُ ثيابًا جديدةً مثل أصدقائه ويأكل الحلوى، ويلعب بالأراجيح، ويفرح بالعيد.

كانَ أصدقاؤه ينتظرونه كي يروا ملابسه الجديدة ويفرحوا بنجاح خطتهم.

***